دار نشر جامعة قطر
Qatar University Press

كلية الآداب والعلوم
College of Arts and Sciences
QATAR UNIVERSITY جامعة قطر

OPEN ACCESS

تاريخ الاستلام: 8 مـــايـــو 2021
تاريخ القبـــول: 30 يـونيـــو 2021

مقالة بحثية

خطاب الوباء في الأدب والإعلام: دراسة لسانية اجتماعية (الإعلام المغربي أنموذجًا)

حميد المساوي

باحث في البلاغة وتحليل الخطاب، جامعة القاضي عياض، المغرب

abd-elhamid-88zag@live.fr

ملخص

تهدف الدراسة إلى تتبع الأثر الاجتماعي الذي خلفه تفشي وباء كورونا في الأوساط المغربية، والتغيير الذي أحدثه في منظومة الإعلام والتواصل، التي تُعدّ اللغة عنصرًا أساسيًا من عناصرها، مع الإشارة إلى الدور الإيجابي الذي يقوم به الأديب في التأريخ لمثل هذه الظواهر، والكشف عن آثارها ومخلفاتها.

وقد اعتمدنا في ذلك منهجًا استقرائيًّا يقوم على الوصف والتفسير، مع الحرص على دراسة الموضوع من جوانب عديدة؛ لُغوية، واجتماعية، وتاريخية، ونفسية.

- وتكتسي هذه الدراسة أهمية بالغة كونها تحاول الإجابة عن أربعة أسئلة جوهرية، هي:
- ما الأثر النفسي والاجتماعي الذي خلَّفه تفشي وباء كورونا في المجتمع المغربي؟
- كيف تصدَّى الإعلام المغربي لهذه الظاهرة؟
- ما التحول الذي طرأ على منظومة الإعلام المغربي خلال الظهور الأول للوباء؟
- كيف يمكن أن يكون الأدب مِرآةً للمجتمع برصده مثل هذه الظواهر والتحسيس بمخاطرها؟

وقد توصلنا من خلال هذه الدراسة إلى مجموعة من النتائج والتوصيات، والمقصد من ذلك كله هو إبراز الدور الإيجابي للإعلام في تدبير الأزمات والحد من آثارها، والدعوة إلى إعادة النظر في منظومة الخطاب الإعلامي المعاصر؛ حتى تكون أكثر تأثيرًا وفاعلية في التصدِّي للجوائح التي يمكن أن تعصف بالمجتمع.

الكلمات المفتاحية: وباء كورونا، الكوليرا، رقابة إعلامية، المخاطب الإعلامي، وعي جمعي

للاقتباس: المساوي، حميد. «الشعر والواقع «خطاب الوباء في الأدب والإعلام: دراسة لسانية اجتماعية (الإعلام المغربي أنموذجًا)»، **مجلة أنساق**، المجلد الخامس، العدد الثاني، 2021

https://doi.org/10.29117/Ansaq.2021.0141

© 2021، المساوي، الجهة المرخص لها: دار نشر جامعة قطر. تم نشر هذه المقالة البحثية وفقًا لشروط Creative Commons Attribution-NonCommercial 4.0 International (CC BY-NC 4.0). تسمح هذه الرخصة بالاستخدام غير التجاري، وينبغي نسبة العمل إلى صاحبه، مع بيان أي تعديلات عليه. كما تتيح حرية نسخ، وتوزيع، ونقل العمل بأي شكل من الأشكال، أو بأية وسيلة، ومزجه وتحويله والبناء عليه، طالما يُنسب العمل الأصلي إلى المؤلف.

دار نشر جامعة قطر
Qatar University Press

كلية الآداب والعلوم
College of Arts and Sciences
QATAR UNIVERSITY جامعة قطر

OPEN ACCESS
Submitted: 8 May 2021
Accepted: 30 June 2021

Research Article

The Covid Pandemic Discourse in Literature and Mass Media: A Socio-Linguistic Study (Moroccan Media as a Model)

Hamid ELmoussaoui
Researcher in rhetorical studies and discourse analysis, Caddi Ayyad University, Morocco
abd-elhamid-88zag@live.fr

Abstract

This study aims at exploring the social impact of the Covid-19 pandemic on the Moroccan society; including the change, it brought about in mass media, wherein language is a central component. In addition, we have discussed the role of the scholar in the analysis and documentation of urgent situations, such as Covid-19, and their concomitant consequences.

We have adopted in this study an inductive method, which proceeds through description and explanation of the phenomenon on the linguistic, social, historical and psychological levels.

- We attempted to answer four main questions:
- What is the social and psychological impact of the spread of corona virus on the Moroccan society?
- How does the Moroccan mass media respond to this phenomenon?
- What change does the outbreak of the virus bring about in the mass media?
- How does literature mirror society by reflecting, documenting and raising consciousness for such a phenomenon?

This study yielded important results and recommendations, among which are: the crucial role-played by mass media in crises management and limitation of their effects, and the call for a rethinking of the contemporary mass media discourse so that it becomes more effective and efficient in responding to socially deplorable pandemics.

Keywords: Corona Virus; Cholera; Media Censorship; Media Addressee; Collective Awareness

Elmoussaoui H., "The Covid Pandemic Discourse in Literature and Mass Media: A Socio-Linguistic Study (Moroccan Media as a Model)," *Ansaq Journal*, Vol. 5, Issue 2, 2021

https://doi.org/10.29117/Ansaq.2021.0141

© 2021, Elmoussaoui H., licensee QU Press. This article is published under the terms of the Creative Commons Attribution-NonCommercial 4.0 International (CC BY-NC 4.0), which permits non-commercial use of the material, appropriate credit, and indication if changes in the material were made. You can copy and redistribute the material in any medium or format as well as remix, transform, and build upon the material, provided the original work is properly cited.

مقدمة

إنَّ البحث في أُسس الخطاب الإعلامي المعاصر أصبح أمرًا ضروريًّا في ظل التحديات الاقتصادية، والاجتماعية، والثقافية التي تواجهها المجتمعات الغربية والعربية؛ نتيجة تفشي وباء كورونا، الأمر الذي جعل كثيرًا من الدول تسابق الزمن من أجل بناء خطاب إعلامي مؤثر يهدف من ورائه المخاطِب إلى جعل المواطن يَحُسُ بمسؤولية الالتزام الأخلاقي تجاه الوطن والدولة، وقد كانت أغلب تلك المحاولات تتصف بالحزم، والفاعلية، والجدية في وضع البرامج التواصلية، والمشاهد الإعلامية، والعمل على توسيع مجال الاهتمام بالمخاطَب الإعلامي والنظر إليه باعتباره عنصرًا فاعلًا في التغيير، وإعادة النظر في آليات التخاطب، بما في ذلك اللغة، وتجاوز النظرة التقليدية التي دأبت على اعتبار الخطاب الإعلامي مجرد خبر، إلى بناء تصور جديد، ورؤيا علمية تتجاوز المفهومات السائدة، والنظرة التقليدية للأشياء، وترى في الإعلام فنًا من فنون المغالبة والتأثير؛ أي الفن الذي ينظر إلى المخاطَب الإعلامي باعتباره كائنًا إيجابيًّا، وعنصرًا فاعلًا في نشر الوعي بين الأفراد.

وجدير بالذكر أنَّ البحث في الخطاب الأدبي، وفي عناصر المشهد الإعلامي المغربي: (الخطاب، والمخاطَب، والمخاطِب)، وتحليل الخطاب من منظور لساني اجتماعي، هو إِحدى الطرق العلمية لدراسة الحياة الاجتماعية، وتحليل السلوك الإنساني، والنظر في البعد الوظيفي والتداولي للخطاب: الرقمي، والسمعي، البصري، والبحث في مصير الخطاب بعد عملية التلقي، والأثر الذي يمكن أن يحدثه في المخاطَب.

وقد يتساءل البعض: ما سبب اختيار الخطاب الإعلامي المغربي موضوعًا للدراسة؟ وما علاقة الأدب بالوباء؟

اخترنا البحث في الخطاب الإعلامي المغربي، لدوره الإيجابي – خلال هذه المدة – المتمثل في العمل على بناء حس وطني تضامني داخل الأوساط الاجتماعية، وبين مختلف الفئات العمرية، وكذا العمل على خلق وعي جمعي بتوظيف مختلف الوسائط والقنوات الإعلامية السمعية والبصرية.

وأما الأدب فقد كان وما يزال مِرآة المجتمع التي يعبر من خلالها الأديب عن التزامه الواعي بقضايا الأمة، ومناقشة جوانب الحياة: العقلية، والدينية، والنفسية، والسياسية، والاجتماعية، والاقتصادية، والثقافية... وغيرها، كأنه خُلق؛ ليواجه مِحَنَ الحياة واختباراتها، خُلق لكي يكتب عن الناس وعن المجتمع، وهو الإنسان الموهوب والمثقف الذي خبر الحياة، وعاش الحزن والفرح، وعاين الأمن والخوف في أعين الناس.

وهكذا فإنَّ المقصد من هذه الدراسة هو البحث في لغة الخطاب، وفي الآليات والوسائل التي اعتمدها الإعلامي المغربي في معالجة ظاهرة الوباء، وجعل المواطن يعي ويدرك مخاطرها.

وقد قادنا هذا البحث إلى الانفتاح على مجالات معرفية مختلفة: كالأدب، واللسانيات، وعلم الاجتماع، وعلم النفس، معتمدين في ذلك منهجًا استقرائيًّا يقوم على الوصف والتفسير، وهي محاولة للإجابة عن الأسئلة الأربعة التي طرحت في ملخص البحث.

تضم هذه الدراسة – إضافة إلى المقدمة والخاتمة – أربعة محاور أساسية:

يحمل المحور الأول عنوان: «الوباء في بلاد المغرب والأندلس»، وقد تم من خلاله تسليط الضوء على مراحل من تاريخ الوباء ببلاد المغرب والأندلس، والكشف عن آثاره ومخلفاته: النفسية والاجتماعية.

وجاء المحور الثاني تحت عنوان: «الأدب والوباء»، في محاولة للكشف عن دور الأدب العالمي في معالجة ظاهرة الوباء من منظور فني جمالي، وذلك من خلال الاستشهاد ببعض الأعمال الروائية والشعرية التي كتبت حول هذا الموضوع، ومنها: رواية «الطاعون» لألبير كامو، ورواية «الإنسان الأخير» لماري شيلي، وقصيدة «الكوليرا» لنازك الملائكة.

أما المحور الثالث فقد جاء بعنوان: «عناصر المشهد الإعلامي المغربي»، وفيه دراسة لمحتوى ولغة الخطاب المتداول حول وباء كورونا، والأسلوب الذي اعتمده المخاطِب (الإعلامي) في وصف الظاهرة الوبائية، والطريقة التي تفاعل بها المخاطَب مع الرسائل والخطابات التي كانت تعج بها مختلف وسائل الإعلام والاتصال خلال تفشي وباء كورونا.

وأما المحور الرابع والأخير فقد جاء بعنوان: «تأثير تفشي وباء كورونا على النظام الإعلامي المغربي»، وفيه إشارة إلى التحوُّل الذي أحدثه الوباء في النظام الإعلامي المغربي على مستوى اختيار محتوى الرسائل الإعلامية وطرق بنائها.

1. الوباء في بلاد المغرب والأندلس

شهدت بلاد المغرب والأندلس على مر التاريخ ظهور أنواع من الأوبئة، والطواعين، والمجاعات، وقد كان للأدب والتاريخ دور هام في الكشف عن آثارها ومخلفاتها الاجتماعية والنفسية، والبحث في أسبابها، ومن ذلك ما ذكره صاحب الأنيس المطرب حول المجتمع المغربي من آثار الأوبئة والمجاعات المتمثلة في الخوف والقلق، وكثرة الجوع والغلاء، وموت الخاصة والدَّهْمَاءِ، يقول: «في سنة خمس وثمانين ومائتين كانت المجاعة الشديدة التي عمت جميع بلاد الأندلس وبلاد العُدوة حتى أكلَ الناس بعضهم بعضًا، ثم أعقب ذلك وباء ومرض وموت كثير هلك فيها من الناس ما لا يُحصى، فكان يُدفن في القبر الواحد أعداد من الناس لكثرة الموتى وقلة من يقوم بهم وكانوا يدفنون من غير غسل ولا صلاة» (ابن أبي زرع 67)، ثم توالت على مدائن المغرب الفتن المهولة، والجوائح المهلكة، وأشدها الطاعون الأسود، الذي ظهر بالغرب الإسلامي سنة تسع وأربعين وسبع مائة للهجرة (749هـ)، فكان أشدَّ فتكًا بالنفوس، وقد أُلّفت حوله تواليف كثيرة، أهمها: رسالة «مقنعة السائل عن المرض الهائل» لابن الخطيب (ت 776هـ)، بفتح ميم مقنعة، أو ضمها، ورسالة «تحصيل غرض القاصد في تفصيل المرض الوافد» لابن خاتمة (ت 770هـ)، والنصيحة لابن علي الشقوري، وقد اهتم بجمعها وتحقيقها محمد حسن في كتاب بعنوان: «ثلاث رسائل أندلسية في الطاعون الجارف».

وأشار بنحمادة في بعض مقالاته إلى المصنفات والمخطوطات التي كتبها المغاربة حول الطاعون الأسود وآثاره الاجتماعية والاقتصادية والنفسية، ومنها: «مقامة في الوباء» لعمر المالقي الأندلسي، و«ماهية الأمراض الوبائية» لعلي بن عبد الله بن محمد بن هيدور التادلي الفاسي (بنحمادة 202)، وهي في حاجة إلى المراجعة والتحقيق، من أجل الاستفادة مما حوته من معطيات معرفية حول هذا الوضع الوبائي الذي شهده الغرب الإسلامي خلال منتصف القرن الثامن الهجري.

وجاء ذكر الطاعون في سيرة الرحالة المغربي ابن بطوطة شاهدًا على تفشي الوباء في بلاد المشرق والمغرب.

وفي عام ألف وسبع مائة واثنين وأربعين اجتاح الطاعون الدّملي، والطاعون الرئوي المغرب، وهما من أشد الطواعين فتكًا، وأكثرها خطورة، يذكر البزاز أن الوباء كان له امتداد جغرافي واسع، شمل عددًا من المدائن، فكان سببًا في موت المئات، وأنه كان أقل خطورة في الصيف، وأشد ضراوة في الشتاء، وأن أثره على الحياة السياسية، والاقتصادية، والاجتماعية كان وخيمًا؛ حيث انتشرت المجاعة واللصوصية بين الأفراد، وانهار الاقتصاد، وتداعت القواعد، وانهدت الأركان، واشتدت الحرب الأهلية، وكثر الموت، وضاقت الأرض بما رحبت، فكان الخوف والهلع الإحساسَ الذي ران على النفوس، وأحاط بالقلوب (البزاز 56–57).

وتذكر المصادر التاريخية أنَّ المغرب بحكم تجربته وتاريخه الطويل مع الطواعين والأوبئة، كان من الدول الأولى التي سنت فرض حجر صحي على المرافئ والسفن التجارية القادمة من المناطق الموبوءة، يقول البزاز: «ابتداءً من 1792، بدأت الهيئة القنصلية المقيمة بطنجة في اتخاذ إجراءات صحية وقائية على الواجهة البحرية، وقد تمكنت سنة 1793 من انتزاع موافقة مولاي سليمان على فرض حجر صحي ضد الجزائر، امتد من يونيو إلى أكتوبر، وفي يوليوز من عام 1797، حصلت من السلطان على ظهير خاص ينص على فرض الحجر الصحي على السفن القادمة من وهران وشل جميع المواصلات القارية في الحدود الشرقية» (87–89).

2. الأدب والوباء

في الآداب العالمية كتابات فنية تنضوي تحت ما يُعرف بآداب الكوارث، تحدثت عن الأوبئة العابرة للحدود، فوصفتها بأسلوب أدبي تصويري، وأشهرها رواية «الطاعون» للكاتب والفيلسوف الفرنسي ألبير كامو (Albert Camus)، وهي أقرب ما يكون إلى الكتابة الأوتوبيوغرافية، وتبدأ الحكاية فيها حيث تبدأ القصة بظهور جرذان ميتة في شوارع وأزقة وهران، ويومًا بعد يوم يتزايد عددها بشكل مهول، ويتزايد معه خوف الناس وهلعهم، خوفهم مما قد تحمله تلك القوارض النتنة من أوبئة مهلكة، وقد حظي هذا الحدث باهتمام الصحف، ولفت انتباه الخبراء إلى إمكانية وجود وباء حقيقي، ولا أحد منهم كان قادرًا على تسميته والجهر به، مخافة أن يحدث اضطرابًا في الرأي؛ لأنَّ كلمة طاعون حينئذٍ لم تكن بالمعنى الذي أراده لها العلم فحسب، وإنما كانت تنطوي كذلك على سلسلة من المآسي، والصور العجيبة والمفجعة؛ صور أثينا المطعونة، والمدن الصينية المِلاء بالمحتضرين والمطاعين، وصُوَّرِ يافا والقسطنطينية، وألف صورة وصورة تحكي عن صرخة الإنسان بين المدائن ومدافنها، والقُرى ومقابرها، صرخة المعاناة والإحساس بالضياع يتربص بالإنسان ريب المنون.

وقد كان لهذا الحدث – بالموازاة مع ذلك – وقع كبير على العَلاقات الاجتماعية والعاطفية، يقول القاص: «لم يكن بوسع أحد، في أطراف هذه الوحدة، أنْ يَأْمَل المعونة من جارٍ له، فظلَّ كلُّ امرئٍ وحيدًا مع ما يشغله، وإذا اتفق أنْ حاول أحدنا أن يبثّ سواه سره أو أنْ يقول شيئًا ما عن عاطفته، فقد كان الجواب الذي يلقاه – أيّا كان أمره – يجرحه غالب الأحيان» (كامو 78)، لقد ولَّد الداء في الذوات إحساسًا بالجفاء والبغضاء.

وجاء في رواية «الإنسان الأخير» للكاتبة الإنجليزية ماري شيلي (Mary Shelley)، كلام مطول حول قصة

الطاعون الذي اجتاح بلاد الترك على الحدود الأوربية، فعاث فيها فسادًا، وجعلها خبالًا، وأكثر ما يلفت انتباه القارئ في هذه الرواية هو التشابيه والأوصاف التي وُصف بها الطاعون، فقد شُبه تارة بالنار، وتارة بالوحش، وتارة بالذئب الكالح الضار لشدة أثره؛ حيث طال مصابُه كل طبقات المجتمع، فصارت المدائن مدافن، والقلاع ملاذًا للحزانى والموتى، وهذا بعض ما جاء في الرواية: «يؤسفنا أن نؤكِّد بأنه لم يَعُد هُناك من شكٍ بأنَّ الطاعون قد حل في ليفورنو، جنوة، ومرسيليا، لم يزد الخبر كلمة واحدة، إنما زاد كل قارئ كلمات من خوفه. كنّا كمن سمع خبر احتراق منزله، فانطلق يجري، وفي صدره أملٌ ضئيلٌ بأن يكون الخبر كاذبًا، إلى أن دخل شارعه ورأى النيران تلتهم مسكنه. كان الأمر إشاعةً أولَ الأمر، إلا أنه صار حقًّا مثبتًا بكلمات لا تُمحى، وحبر لا يكذب. جعل الظلامُ المحيط بتلك الكلمات حروفَها أكثر وضوحًا، فكبرت الحروفُ في أعين الناظرين، وبدت وكأنها نُقشت بقلم من حديد، وُسمت بميسم من نار، نسجت من غيوم في السماء، ومُهرت على وجه الكون» (شيلي 115).

وتُضاف إليها رواية «الحب في زمن الكوليرا» للكاتب الصحافي والسينمائي الكولومبي غابرييل غارسيا ماركيز (Gabriel José Garcia Màrquez)، التي تستمد قوتها الإبداعية والتصويرية من المشاهد البانورامية والميثولوجية التي تجسد المأساة: الإنسانية النفسية، والأسرية، والصحية، التي حاقت بولايات ساحل الكاريبي، فأحدثت تحولًا واضحًا في العلاقات الاجتماعية والعاطفية؛ ومن ذلك أن أعراض الحب البائس عند الإنسان أصبحت شبيهة بأعراض الكوليرا، هذا الإحساس المر الذي جسدته قصة فلورينتينواريثا الصياد المنزوي، وفيرمينا داثا، المِحْنة المشتركة التي نشأت في أحضان الفتنة والخيانة، في أرض نتنة غاصَّة بالشياطين، طافحةً بالموتى «مثل اسفنجة ترشح تحت وطء الأقدام دمًّا فاسدًا كريه الرائحة» (غارسيا ماركيز 104)؛ حيث الكوليرا – عدو الغراميات – يشتد بطشه بين الناس.

وفي مجال الشعر تحضرنا قصيدة «الكوليرا» للشاعرة العراقية نازك الملائكة، وهي أول قصيدة عربية (حُرة) نُظِمَتْ حول هذا الموضوع سنة سبع وأربعين وتسع مائة وألف للميلاد (1947م)، وفيها تصف الشاعرة معاناة مصر الشقيقة مع الوباء الذي ترك الناس مكفّنين في مساكنهم، وصدى الموت والآهات يتردد في الطرقات والبيوتات بعد أن كان يَشُقُّ طريقه إلى جسد الإنسان كما يَشُقُّ السَّبُعُ جِلدَ الفَريسةِ، وقد أظهرت نازك هذا الوضع المأسوي في صورة بشعة محزنة يَلُفُّهَا الصمت والرعب والحقد، تقول نازك:

في كَهْفِ الرُّعبِ مع الأشلاءْ
في صمتِ الأبدِ القاسي حيثُ الموتُ دواءْ
استيقظَ داءُ الكوليرا
حِقْدًا يَتَدَفَّقُ موتورا
[...]
في كلّ مكانٍ خلَّفَ مخلبُهُ أصداءْ
في كوخ الفلاّحة في البيتْ
لا شيءَ سوى صَرخات الموتْ (140–141).

3. عناصر المشهد الإعلامي المغربي

يتشكل المشهد الإعلامي المغربي من ثلاثة عناصر أساسية، هي: صاحب القول أو الخطاب، وهو إما أن يكون مقررًا (يمكن ولا يمكن)، أو متتبعًا (كان أو لم يكن)، أو مثبتًا (يكون أو لا يكون)، تُوكل مهمة الإقرار للسلطة الحاكمة، فهي من يقرر في الأمر بالمنع أو الجواز، ويضطلع بمهمة التتبع الدارسون، والإعلاميون الذين يتعقبون الوضع الصحي بالبلاد، وأما المهمة الثالثة فتوكل للأطباء والخبراء الذين لهم القدرة على رصد الظاهرة الصحية، واستقراء البيانات المخبرية، ووضع تصور مسبق للحالة الوبائية.

والسامع، أو المخاطَب، وهو الذي يتوجه إليه المخاطِب بالقول، أو الرسالة، قصد تقوية سلوكه، أو حمله على تبني سلوك معين، وهو إما أن يكون شخصًا مسالمًا، أو مشاجرًا.

ثم الرسالة، أو الخطاب الإعلامي، وهو مجموع الأفعال والأقوال التي يتردد صداها في المنابر الإعلامية، ومواقع التواصل الاجتماعية، والملاحظ أن أغلب الخطابات الإعلامية التي تزامن ظهورها مع ظهور أول إصابة بوباء كورونا في المغرب، كان الهدف منها هو العمل على بناء حس تضامني وطني، وخلق وعي جمعي بخطورة هذا الوباء الفتاك الذي بات يهدد حياة الناس، فصار الكل يتحدث عنه، وفي ظل هذا الوضع وجد المواطن المغربي نفسه أمام انفجار معلوماتي مُهْوِلٍ ومُهَوّلٍ؛ ففي كل يوم يتم إنتاج عشرات الرسائل الإعلامية حول وباء كورونا، وكلها تعبر عن مقدار وحجم التخوف والهلع الذي يشكله الوباء داخل الأوساط الثقافية والاجتماعية؛ حيث تتزايد خطورته يومًا بعد يوم، ويتزايد الاهتمام به حينًا بعد حين، الأمر الذي جعل فئات المجتمع السياسية والثقافية تتطلع إلى بناء مجتمع مغربي قوي ومتماسك، يمتلك القدرة على مواجهة المهلكات المخوفات.

وفي سياق الحديث عن دور الخطاب الإعلامي المغربي في الحد من خطورة الوباء، نلفت انتباه القارئ إلى وجوب التمييز بين نوعين من الخطاب: خطاب إعلامي مُؤَسَّسٌ، يتفاعل مع الحدث من زاوية نظر علمية دقيقة، ورؤية نافذة تحاول الإحاطة بالظاهرة في تجلياتها وأبعادها المختلفة: النفسية، والتاريخية، والاجتماعية، والاقتصادية، على نحو ما هو موجود في بعض المنابر العلمية والإعلامية التي تولت مهمة تنظيم ندوات علمية رقمية، بغرض تحسيس المواطن المغربي بخطورة الوباء، ودعوته إلى الالتزام بواجبه الأخلاقي تجاه الوطن، وفتح آفاق علمية بحثية في خطاب الوباء، والتأسيس لما يُسمى: «ثقافة تدبير الأزمات، أو فن إدارة الأزمات»، التي فيها خلاص المدينة وقوامها، كالندوة العلمية الرقمية التي عملت على تنظيمها جمعية البلاغيين المغاربة، بمشاركة باحثين وخبراء متميزين في مجال تحليل الخطاب (6phndL2nVQs).

وهُناك خطاب إعلامي آخر أكثر خطورةً من الوباء وأشدُّ بأسًا، وهو خطاب تضليلي، يميل أصحابه إلى الكذب والانتحال في غياب الحِس الأخلاقي، والمسؤولية الوطنية، ويكثر تداول هذا الخطاب على منصات التواصل الاجتماعية، وهو وضع يجعل المخاطَب – في كثير من الأحيان – عاجزًا عن فهم الرسالة الإعلامية، وربما يجعله ينخدع بمحتواها، مثلما انخدع العِمْيَان بجسد الفيل لما تلمسوه، فوصفوه بأوصاف غريبة (الغذامي 41)، وهذا ما يقع لكثير من المواطنين في أثناء تعاملهم مع الخطابات والرسائل الإلكترونية التي تُعْرض على مواقع التواصل الاجتماعية بشتى وسائل الاتصال.

ويتكون الخطاب الإعلامي لُغويًا من رموز وعلامات تجعل من الحدث أو الفعل أسلوبًا تواصليًّا يظهر في شكل صُور ذِهنية مؤثرة، ويمكن تصنيف الخطاب على هذا الأساس إلى ثلاثة أصناف لغوية: خطاب نخبوي مؤسس على النقد المنهجي، يديره قادة الرأي (الخبراء والمفكرون في مجالات الحياة المعرفية)، وهو خطاب يستعصي على العامة فهمه وإدراكه في غياب المعرفة الأساسية بشروط التحليل والتأويل، والعلم بلغة التواصل والتخاطب (اللغة العربية) التي أضحت بفعل تنوع خصائصها من أكثر لغات الإعلام تداولا، ويهدف هذا الخطاب إلى بناء تصور منطقي للأشياء، وميول إيجابية قوامها التحليل والتمييز.

وخِطاب لُغوي عامي يسهل على الأفراد فهمه والتفاعل معه، وهو أكثر الخطابات الإعلامية بساطة؛ لأن لغة التواصل فيه لغة سهلة، وهي لغة الحديث اليومي التي يتواصل بها جلُّ أفراد المجتمع المغربي، وهي صورة تعبر عن مواقفهم، وفلسفتهم، وأساليبهم في الحياة، ويتم الترويج لهذا الخطاب في الصفحات الإعلامية ومواقع التواصل الاجتماعية (Social Media)، التي أصبح المواطنون مُتَقَبّضِينَ حولها، مملوكين لها، «واقعين تحت وطأة تخديرها» (طه 31)، فهي من أحدث وسائل الاتصال الجماهيري التي تتيح للأفراد – في ضوء آفاق التفاعل المتعددة – إمكانية التواصل على نطاق واسع، والتعبير عن آرائهم ومواقفهم بأسماء مستعارة، وفي مُدد زمنية قصيرة، وتساهم في تداول المادة الصحفية والإعلامية بشكل غير اعتيادي، وغالبًا ما يَستغل بعضهم هذا الوضع لنشر الأكاذيب، وتضليل العقول، وإلحاق الضرر بالمجتمع وبمنظومة القيم السائدة، ويزداد الأمر سوءًا في غياب حصانة معرفية، ورقابة إعلامية، ومواكبة أكاديمية تساعد المتلقي على التسلح بالكفاية التواصلية والتأويلية، فيظلَّ بذلك عاجزًا عن مواجهة الغزو الإعلامي والمعلوماتي الجارف، الذي تحدثه هذه المواقع (رشتي 38)، ويظلَّ عاجزًا عن معرفة هوية المرسل، ووضع حدود التواصل معه، الأمر الذي يورث الخلاف، ويثير في الإنسان الاستعداد لممارسة العنف (العنف من أجل البقاء)، أو البطش الزالق، كما يسميه طه عبد الرحمن (66–69)، وهو ما يغير من نظرة الإنسان وتصوره للأشياء من حوله، ويفتح باب التهافت والتفاهة على مصراعيه؛ حيث يتسلل الخطأ إلى الأذهان، وحيث يبدأ الخلاف بسيطًا على مواقع التواصل، ثم يأخذ في التطور شيئًا فشيئًا حتى يصير صراعًا، ويتحول الصراع إلى ردود أفعال عدائية ومتطرفة تنعكس سلبًا على حياة الأفراد والمجتمعات.

ويحظى هذا النوع من الخطابات بنسب مشاهدة واسعة ومتزايدة، وردود أفعال متباينة، بين من يقر بوجود الوباء، ويدعو إلى الالتزام بالحَجر والمَنَعَة، وبين من ينكره، ويعتبره مجرد مؤامرة، أو لُعبَة مُبيتة باتت تهدد الأمن والسلم العالميين، وهو في نظرنا أمر مستبعد؛ لأننا ببساطة لسنا نشك في أنَّ وجود الوباء أمر كائن، والتاريخ خير شاهد على ذلك، فكثير من الأمم مرت بمثل هذه التجربة في معركتها مع الوباء، وقد كفانا مؤنة البحث في هذا الموضوع المفكر البلاغي، والعلامة المغربي الدكتور عبد القادر حمدي، بمشاركته القيمة في أشغال الندوة الرقمية، التي أشرفت جمعية البلاغيين المغاربة على تنظيمها في العاشر من يونيو من سنة ألفين وعشرين، في موضوع: «خطاب الوباء» (6phndL2nVQs)؛ حيث توقف عند أهم المراسلات، والكُتب والمصادر التراثية التي تحدثت عن الوباء: ككُتب السياسة، والأدعية والأحاديث، وكتب التاريخ، والأدب، والطب، وسير الأعلام، ومنها: رسالة ابن الخطيب: «مقنعة السائل عن المرض الهائل»، ورحلة ابن بطوطة: «تحفة النظار»، ومقدمة ابن خلدون، وكتاب «تحصيل غرض القاصد في تفصيل المرض الوافد» لابن خاتمة الأنصاري، و«وصية الناصح الأودّ في التحفظ من

المرض إذا وفد» لابن منظور القيسي، ومقامة المالقي (ت 844هـ)، و«المقالة الحكمية في الأمراض الوبائية» للتادلي، وغيرها، وأشار كذلك إلى بعض التدابير الاحترازية التي قام بها السلاطين المغاربة خلال النصف الأول من القرن الثالث عشر الهجري، مخافة تفشي الوباء ببلاد المغرب، كتلك التي قام به السلطان مولاي عبد الرحمن بن هشام عام 1244هـ؛ حيث أمر بمنع استيراد الملابس القديمة إلى الموانئ المغربية خشية حملها لجراثيم وبائية.

وهُناك نوعٌ ثالث من أنواع الخطاب يعتمد اللغة العربية الفصيحة وسيلة للفهم والتفاعل مع المخاطَبين، على نحو ما هو موجود في النشرات الإخبارية التي تُعرض على الجمهور من خلال القنوات الإعلامية التلفزيونية الوطنية والفضائية، وتخاطب فيه السمع والبصر قبل الخاطر، وذلك من خلال توظيف علامات ورموز (منبهات)، ووسائط متعددة (Multimedia)، تكاد تكون لها الفاعلية نفسها، والقوة التأثيرية نفسها التي تؤديها اللغة الإقناعية في بُعدها التداولي، كالصورة التلفزيونية الحسية التي تُعدُّ وسيلة تواصل حديثة، وأداة تعبير بلاغية، والتي تُعد «العمود الفقري لمنظومة الخطاب الجديدة زمن الإعلاماتية» (الحوتي 75)، الزمن الذي يُسميه ميشيل دي سيرتو (Michel de Certeau) بـ «ملحمة العين» (الغذامي 40)؛ حيث تحلُّ العين في «مجتمع الصورة والتكشف» (طه 251) محل باقي الحواس في ممارسة فعل الإرسال والتلقي، وحيث تعدّ الصورة أو أم الوساطات كما يسميها طه عبد الرحمن «أكثر مدركات الحواس وقوعًا وتواردًا واختلافًا على الإنسان» (23)، وأكثر أنواع الخطاب تعبيرًا «لاحتمال نزولها منزلة المُصَوَّرِ المُعَايَن» (طه 78)، فما تحمله الصورة اليوم من علامات ثقافية واجتماعية يجعلها تؤدي وظيفة أساسية إلى جانب وسائل أُخرى في التأسيس لوعي جمعي عميق في التعامل مع الأزمة، خلافًا لما كان عليه الوضع قبل الوباء؛ حيث أسهمت الصورة في إعادة الكائن البشري إلى وحدانيته (الغذامي 39).

وكما أنَّ الصورة – في تجميدها للحدث – تسعى إلى توجيه المخاطَب، والعمل على بناء وعي مجتمعي بخطورة الفيروس، فإنها يمكن أن تؤدي دورًا وظيفيًّا مغايرًا، وذلك من خلال تصوير سلوك أو فكرة في سياق سلبي مستفز، مثلما يقع اليوم في المغرب وألمانيا؛ حيث نجد أغلب المغاربة يؤمنون بوجود الوباء، مقارنة ببعض المواطنين الألمان الذين يرون بأنَّ الخطابات التي سيقت حول وجود الوباء، هي مجرد خطابات وهمية، تسعى إلى الحد من حريتهم، وهذا ما دفعهم إلى القيام بمظاهرات حاشدة للتعبير عن غضبهم، ورفضهم، واستنكارهم، ومثل هذا الوضع يُفقد الصورة وظيفتها الإعلامية، وقوتها التبليغية، ويجعل المخاطَب أمام مشهد إعلامي مزدوج ينطوي على خطابين مختلفين، أحدهما ينقض الآخر، وهو ما يُحدث خللًا في المدركات الحسية ينجم عنه سوء فهم المتلقي وتمثله للظاهرة.

وجدير بالذكر أن الصورة مهما بلغت من الدِّقة والحِرفية في اقتناص الأشياء المُصوَّرة، فإنَّها لا يمكن أن تكون بديلًا مقدمًا عن الخبر في طلب الفائدة، وقد تناول هذا الموضوع بالدراسة والتحليل المفكر والفيلسوف المغربي الدكتور طه عبد الرحمن، في كتاب: «دين الحياء» (41–45).

ويُضاف إلى خطاب الصورة، الخطاب الديني الخُلُقي الذي ينهل من القرآن الكريم، والحديث النبوي، والأحكام الفقهية، ويقوم هذا الخطاب على الوعظ، والإرشاد إلى العمل بالكتاب والسنة، والتمسك بالقواعد الشرعية التي تنص على حفظ الأنفس، وحماية الأبدان، وليس يخفى على أحد تأثير الخطاب الإعلامي الديني في الجمهور، الذي يكاد يُضاهي تأثير وسائل الإعلام والاتصال الحديثة، ودورها في جعل المخاطَب يعي حقيقة الوضع السائد، والنظر إلى الأمور بعين البصيرة.

وهُناك نوعٌ آخر، وهو الخطاب النفسي أو الوجداني المثقل بالأحاسيس والأخيلة، وهو خطاب يَهزُّ المشاعر، ويثير الانفعالات، بمخاطبة اللاوعي، وممارسة التأثير النفسي على المتلقي، وزعزعة مشاعره وعواطفه الخفية، ويتسم هذا الأسلوب الخطابي بالإيجاز، والبساطة في اختيار المعجم اللغوي (نقصد الاختيار الموضوعي للكلمات)، على نحو ما نجد في الخطابات التحسيسية التي تُبث في القنوات التلفزيونية الوطنية مرات تلو الأُخرى، وهذا واحد منها قد تردد ذكره باللهجة المغربية إشارة إلى الوباء التاجي (كورونا): (رَاهْ كَيْدّي لكْ لْعْزِيزْ علِيكْ، يَدّي لكْ الأَبْ دْيَالَكْ، يَدّي لكْ الزَّوْجْ دْيَالَكْ، يَدّي لكْ خُوكْ، أَعَزّ إِنْسَانْ عَنْدَكْ)، ومعادله بالعربية الفصيحة: (يحيق الوباء بأعز الناس وأقربهم إليك؛ والدك، وزوجك، وشقيقك)، والطريقة التي أُلقي بها هذا الخطاب، ونوع اللغة المستعملة فيه، وطبيعة الحالة المماثلة (المستعار منه، أو العنصر الخارجي الذي يصلح لبناء الحجة)، فيها من الإثبات، والإغراء والجذب ما يثير المشاعر، ويحرك العواطف والغرائز، ويستهوي الأنفس، ويحمل المخاطَبين على الاقتناع والتصديق، والأخذ بالرأي، ولا يستمد هذا الخطاب ما به من إقناع، إلا من خلال حضوره في النفس، وتأثيره في شخص المخاطَب تأثير الثبوتيات، التأثير الذي يجعل الداء نصب عينيه، ويُولِّد في نفسه الإحساس بالخوف والرهبة؛ حيث تجتمع العبارات، والانفعالات، والمؤثرات الفنية، مكوِّنة مشهدًا دراميًّا متكاملًا لواقع مأسوي، وحيث يتجاوز الإعلامُ الإحصاءَ إلى الحكي والمحاكاة؛ لأن المحاكاة والمماثلة تزيد من قوة تخيل الشيء وحضوره في الذهن، فالخِطاب الذي يُوجَّه إلى الجمهور يكون أقوى من أجل المماثلة، لا من أجل المعنى.

ويُعد الخِطاب النفسي بحق خطابًا حجاجيًّا قويًّا، يسعى من خلاله المخاطِب إلى تفخيم الظاهرة، قصد التأثير في نفسية السامع، ويبدو ذلك جليًّا من خلال تكرار بعض الكلمات والعبارات المؤثرة، وهو ما نبَّه إليه القدامى في موضع الحديث عن علاقة الخطيب بالسامع؛ حيث يُفترض في الخطيب أنْ يكون على معرفة بيّنة بالاستعدادات النفسية التي تحمل المرء على الغضب، أو الخوف، أو الرحمة، أو غيرها من الصفات المعترية للنفس.

وليس يخفى على المتتبع للقنوات الوطنية المغربية خلال المُدة التي اجتاح فيها الوباء دول العالم أنَّ مهمة الخطاب التلفزيوني تمثلت في التحذير من الانعكاسات: الصحية، والاقتصادية، والاجتماعية التي يمكن أن تعصف بالمجتمع في حال تفشي الوباء بشكل كبير، وكذا العمل على نشر الوعي في صفوف المواطنات والمواطنين، وتبني منهج البحث عن نموذج الإنسان المواطن، الذي يعي ويدرك خطورة الأزمة، ويتعامل معها بمنطق العقل والمسؤولية، وهذا ما نص عليه الخطاب الملكي السامي الصادر في عشرين غشت من سنة ألفين وعشرين، الذي يكتسي أهمية بالغة، ودلالة عميقة بالنظر إلى السياق الذي جاء فيه، والذي يجعل مصلحة الوطن والمواطن فوق كل اعتبار، وهو ما تؤكده أيضًا نظرية الإدراك التي ترى بأنَّ الفرد يتفاعل مع الظروف المحيطة به، وهو الذي يأخذ المبادرة (رشتي 96).

وما من شك في أنَّ معاني التضامن والبر، والشجاعة، والإرادة، هي الدلالات المهيمنة على هذا الخطاب، وهي كيان راسخ ومتجذر في الثقافة المغربية، يشكل جزءًا مهمًّا من تاريخ المغاربة، وتقاليدهم الأصيلة، والمخاطِب إذ يركز اهتمامه على طرح تلك المعاني المتميزة في الحياة الاجتماعية للمغاربة، فإنه يحاول بذلك إقامة حُجة الاشتراك، باستحضار القيم الأخلاقية، والإنسانية، والوطنية المشتركة، التي يتحتم على المخاطَب الالتزام بها من أجل بناء حس وطني جمعي، وهي في مجملها ترمز إلى الحياة، كما ترمز إلى الفضيلة باعتبارها قوة فاعلة في المجتمع، بها تتحقق

الفضائل، وبها يرقى المرء عن الرذائل. ويمكن للمخاطِب أن يعتمد أنواعًا أُخرى من الحُجج لبلوغ تلك الغاية، كحُجَّة السلطة، وحُجَّة التأطير، وحُجَّة المثال (بروطون 61–63).

وتُضاف إلى هذه المعاني معانٍ أُخَرَ تُعدُّ مؤشرًا دالًا على تخوف مؤسساتي، غايته حماية الدولة، وكسب مُعَاضَدَةِ الجمهور حتى لا تُجبَر المؤسسة على إكراه المواطن على الالتزام، وممارسة القهر والشطط في السلطة في أثناء تنفيذ سياستها الصحية، ومؤداه أنَّ وسائل الإعلام والاتصال يمكن أن تَحل بدل العنف في حل العديد من المشكلات، مثل ما كانت من قبلُ سببًا في حلِّ قضايا دولية كُبرى (رشتي 61).

وفي هذا الصدد يقول بروطون: «الاستغناء عن استعمال القوة يمثل خطوة نحو إنسانية أكثر: أي نحو رابط اجتماعي يكون متبادلًا وغير مفروض» (18)، ولو استعرضنا أنواع الخطابات الصحفية التلفزيونية المغربية التي سيقت حول الوباء، والمدد الزمنية التي خصصت لها، ونوع اللغة التي استعملت فيها، والدور الوظيفي للإعلام المغربي في توجيه الرأي العام وبلورته؛ لتبين لنا أن المخاطِب كان ذكيًّا في اختياراته، وفي طريقة خطابه، بتجنبه العنف اللفظي، واللجوء إلى الترديد، واعتماد أسلوب خطابي بسيط، وهو ما نتج عنه حدوث استجابة واسعة من لدن أبناء المجتمع، ما كان لها أن تحدث في حال اعتماد أسلوب خطابي آخر؛ لأنَّ الخطاب بقدر ما يكون بسيطًا وآنيًا وقريبًا من الواقع الاجتماعي، يكون ألذ وأشدَّ تأثيرًا في المخاطَب.

لقد فرض وباء كورونا على الإعلامي المغربي اتباع أسلوب خطابي مرن ومتنوع، يمكن المخاطَب الإعلامي من فهم مضامين الخطاب، والتفاعل معه، والمشاركة في نشره على نطاق أوسع؛ فعلى إثر الاهتمام المتزايد بهذه الظاهرة أصبحنا نلاحظ إقبالًا متسارعًا على مختلف الشاشات والقنوات، والمواقع الإعلامية بحثًا عن الخبر، الوضع الذي لم يَعُدْ التمييز فيه بين الصدق والكذب، والبحث عن مصدر الخبر أمرًا يهم المتلقي، بقدر ما يهمه معرفة الأرقام والحسابات المتعلقة بالوضعية الوبائية التي تكتسب معناها من طبيعة اللغة التي يصف بها المتكلم الظاهرة أو الحدث، فتترك تأثيرها في المخاطَب؛ لأنَّ المخاطِب عندما يُسمي الظاهرة، ثم يأخذ في وصفها، ووصف آثارها وتداعياتها النفسية والاجتماعية، فإنَّه يدفع المتلقي أو المخاطَب إلى الانقياد، واتخاذ موقف يجعله يحس بالرهبة، أو الخوف، ويمنعه من القيام بردود أفعال عدائية؛ حيث يمارس الإعلام ما يُسمى عند البعض «بالإشباع البديل» (فهمي 112)، وهُنا يحضُر دور اللغة كما الثقافة، في التأثير على وجود الإنسان ورؤيته للأشياء، فاللغة قد تُجبر الإنسان على الهروب من الأشياء، وقد تجعله يندفع نحوها بقوة، وهما معًا (اللغة والثقافة) يشكلان الإطار العام للحدث الاتصالي، واليوم عندما يخاطب الإعلامُ المواطنَ المغربي من خلال استحضار بعض القيم الإنسانية والمجتمعية، كقيمة التضامن، ويزكي فيه بعض الميول الإيجابية، فهو يسعى بشكل من الأشكال إلى أنْ يُوقظ فيه الاستعداد المسبق لممارسة فعل أو سلوك معين بمجرد تعرضه لبعض المضامين والرسائل الإعلامية التي تحتوي مثل ذلك السلوك، وهذا الأسلوب كثير الاستعمال في خطابات الوباء التي تُعرض اليوم في مختلف وسائل الإعلام المغربي، ويمكن عدَّه ضمن الحجاج المؤسس، الذي يسعى من خلاله المخاطِب الإعلامي إلى التغيير، وإليك بعض ما جاء في وسائل الإعلام المغربي:

خطاب الحملة الإعلامية التحسيسية ضد الوباء: بقا في دارك (ktab9rito)، وهو خطاب تحذيري تنبيهي، الأمر فيه يفيد الوجوب، وقد تزامن ظهوره على القنوات الإعلامية المغربية مع تزايد حالات الإصابة بالوباء، خلال شهر مارس من سنة ألفين وعشرين.

والتنبيه والتّيقُّظُ في اللغة: المعرفة والفطنة، واليقظةُ ضد النوم، وضد الغفلة، قال طُرَيْح:

نَامَـتْ خَلاخِلُهَـا وَجَـالَ وِشَـاحُهَا وَجَـرَى الوِشَـاحُ عَـلَى كَثِيـبٍ أَهْيَـلِ
فَاسْـتَيْقَظَتْ مِنْـهُ قَلائِـدُهَا التـي عُقِـدَتْ عَـلى جِيـدِ الغَـزَالِ الأَكْحَلِ

(ابن منظور 7/ 467).

وفي ظل الوضع المتزايد لحالات الإصابة بوباء كورونا أضحى المخاطِبُ الإعلامي في أمس الحاجة إلى البحث عن آليات ووسائل لبناء خطابات إعلامية مؤثرة، ومن ذلك البحث عن لغة جديدة؛ أي ابتكار ألفاظ، ونعوت، وصفات تُحيي في المخاطَب روح التضامن والوفاء، وتثير فيه عاطفة الإحساس بالانتماء والولاء للوطن، ويعمل المخاطِب إلى جانب ذلك على إظهار مضمون الخطاب مظهرًا مخصوصًا، للتوكيد على وجود الوباء، وتضخيم صورته (بالتعريف والوصف)؛ أي ممارسة ما يُسمى في نظريات التلقي بـ «التطعيم أو التلقيح».

والمُلاحَظ أن الإعلام المغربي خلال هذه المرحلة كان يهدف إلى جعل الشخصية الإعلامية علامة ورمزًا دعائيًّا لتمرير الخطاب، وجعله أكثر قوة وواقعية وتأثيرًا في المتلقي، وذلك من أجل العمل على بناء إرادة وطنية مُوحَّدة وحقيقية، وتحقيق أكبر قدر ممكن من الوعي، على الرغم مما قد يتولد عن الاختيار في الأسماء والرموز من الافتتان؛ حيث يصبح قبول الخطاب مشروطًا على الدوام بوجودها، لا بما يحمله الخطاب من مضامين ورسائل.

ويُضاف إلى عنصر اللغة، حُسن المظهر والصورة، والأداء، والشهرة، وليس يخفى على أحد ما لهذه العناصر من تأثير على مستوى تلقي المعلومة، كما لا يخفى أنَّ القدرة على التلاعب بالإدراك أو الوعي يمكن أن يؤدي دورًا مهمًا في إقناع المتلقي، وهو من خصوصيات الإعلامي الماهر، الذي يلزمه اليوم، وفي ظل الحرب القائمة على الوباء، اعتماد هذا الأسلوب الذي يسميه بعض علماء النفس «مبدأ المطاوعة» (سيالديني 12)، والذي يمكن أن يكون جزءًا من نصر مجتمعي على الوباء، كما كان من قبلُ عنصرًا أساسيًا في نجاح بعض القرارات الديبلوماسية التي اتخذتها بعض الدول الأجنبية والعربية للتأثير في الجماهير، على نحو ما ذكر أحمد فهمي – الخبير في الإعلام – حيث توقف عند نموذجين بارزين: النموذج الأمريكي في محاولاته اليائسة لتحسين صورة أمريكا لدى الرأي العام العربي والإسلامي حول حياة مسلمي أمريكا، والنموذج المصري في استخدامه جُلَّ وسائل الإعلام والصحافة لصناعة صور وهمية حول تاريخ مصر والأمة العربية؛ حيث يتصدر خطاب جمال عبد الناصر صحيفة الأخبار المصرية في الخامس من يونيو عام سبعة وستين وتسع مائة وألف (زمن النكسة)، وهذا نصه: «ننتظر المعركة على أحرَّ من الجمر.. هذه الخُطوة التي ستملأ الأمة العربية كلها بالثقة» (فهمي 91)، وبعد مرور ساعات نشبت الحرب النكراء التي كان النصر فيها حليف العدو (فهمي 84–91).

4. تأثير تفشي وباء كورونا على النظام الإعلامي المغربي

فرض وباء كورونا على الإعلامي المغربي بذل جهد كبير في اختيار محتوى الرسالة الإعلامية، والتفنن في طريقة بنائها، وقد جاء هذا الاختيار – على ما يبدو – موافقًا لما جاءت به النظريات العلمية الحديثة، مثل نظرية الاستقبال الألمانية، والنظرية السلوكية مع سكينر وبافلوف، ونظرية المعرفة الإدراكية؛ حيث بدأ الإعلامي المغربي خلال الأشهر

الأولى من ظهور الوباء يكرس اهتمامًا كبيرًا بالخطابات والرسائل الأكثر تأثيرًا، والتي يمكن أن تحدث استجابة آنية، وتغييرًا جذريًّا على مستوى الإدراك والتصور الذهني للظاهرة، باختيار الموضوعات ذات الصلة، وتسخير مختلف الوسائط والتقنيات الحديثة في مجال الإعلام والتواصل، سواء كان على مستوى التصوير، أو الكتابة، أو الحديث، والأمر هُنا شبيه بالعمل الذي تقوم به فئة من المنتخبين للتأثير في الجمهور.

وما من شك في أنَّ الأسلوب الذي يتبعه المخاطِب في تنظيم الأفكار ونقلها – خلال هذه المرحلة بالذات – قد تأثَّر بشكل مباشر بسياق الاتصال، وطبيعة المخاطَب، ونوع الحدث، فالتجربة التي عاشها المغاربة خلال الأشهر الأولى من ظهور وباء كورونا أعادت إلى أذهانهم ذكرى الماضي البئيس، الذي كان شاهدًا على تفشي العديد من الأمراض والأوبئة المعدية، كمرض الكزاز (التيتانوس)، والجمرة الخبيثة، والجدري، وهذا ما تولَّد عنه حصول استجابة سريعة وواسعة بعد أول خطاب إعلامي تحسيسي، لم يكن المخاطِب فيه مضطرا إلى التأثير القسري.

ويستمد هذا الخطاب قوته الإقناعية من تأثيره في المخاطَب وحمله على تبني فعل أو سلوك صحي واجتماعي معين، ولهذا نجد معظم الخطابات التي تصلنا حول الوباء، خطابات بسيطة مرسلة، تفيض بالإشارات الدالة على الخوف والرهبة؛ حيث يتبنى الإعلامي نوعًا من أنواع الإقناع، يسميه فانس باكار (Vance Packard) بـ «الإقناع السري»؛ حيث يكون الهدف من إلقاء الخطاب هو الإيقاع بالمتلقي في شرك فكري يصعب التخلص منه دون تبني الفعل أو الرأي (بروطون 25).

خاتمة

خِتامًا، يمكن القول: إن الخطاب الإعلامي المغربي كان له دور بارز، خصوصًا في المرحلة الأولى من ظهور الوباء، في الحد من تداعيات وباء كورونا على القطاعين: الصحي، والاجتماعي، على الرغم من صعوبة الموقف الذي يضطلع به الإعلامي في مجتمع منفتح يؤمن بالاختلاف والتعدد، في زمن يكاد يكون الإعلام فيه المصدر الأول لتشكيل الوعي الجمعي، وممارسة التأثير النفسي والتربوي، الذي يستدعي توظيف وسائل وتقنيات حديثة، مثل: تقنية الصورة والفيديو، وكل ما من شأنه أن يُقرب المتلقي من الحدث، ويُسهم في الارتقاء بمستواه الإدراكي، ومثل هذا الموقف يتطلب إعادة النظر في السياسة والأداء الإعلامي؛ حتى يتمكن رجل الإعلام من تأدية الدور المنوط به لبناء مجتمع فطن وفوليطي (مدني أخلاقي)، ولن يتأتى له ذلك في حال غياب رؤية واضحة، ومقاربة علمية شمولية تنظر إلى الأشياء في بُعدها الثقافي، والاجتماعي، والنفسي.

وقد توصلنا من خلال هذا البحث إلى جملة من النتائج يمكن إجمالها في الآتي:

أولًا: إن للمغرب – كما للعديد من دول العالم – تجربة وتاريخًا طويلًا مع الأوبئة والجوائح يمكن مراجعته والاستفادة منه في وضع أسس علمية لما يُسمى بثقافة تدبير الأزمات، والحد من الأضرار الناجمة عنها.

ثانيًّا: فرض وباء كورونا على الإعلامي المغربي إعادة النظر في شروط التخاطب، والبحث عن وسائل ورسائل إعلامية أكثر فاعلية، واتباع أسلوب خطابي مرن يتيح للمخاطَب فهم مضامين تلك الرسائل، والتفاعل معها، وهو ما يكشف عنه حال المغاربة خلال الأشهر الأولى من ظهور الوباء؛ حيث أُصيب الكثير منهم بالرهبة والخوف نتيجة الرسائل والخطابات التي كانت وسائل الإعلام تعج بها.

ثالثًا: يتأثر الخطاب الإعلامي بشكل مباشر بسِيَاق الاتصال، وطبيعة المخاطَب، ونوع الحدث، وهو ما كشف عنه البحث من خلال الوقوف عند بعض النماذج التي تظهر بشكل بارز التحول الذي أحدثه وباء كورونا في الإعلام المغربي على مستوى تنظيم الأفكار ونقلها.

رابعًا: قد يكون الإعلامِيُّ مضطرًا في مثل الوضع الذي نعيشه اليوم جراء تفشي وباء كورونا إلى اعتماد مبدأ المطاوعة، الذي يمكن أن يكون أسلوبًا ناجعًا في تشكيل المناعة الجماعية ضد الوباء، والذي قد يحل بدل العنف والشطط في التصدي لبعض الممارسات غير المسؤولة.

خامسًا: معظم الكتابات الأدبية التي كتبت حول الأوبئة والأمراض الأشد فتكًا في تاريخ البشرية كتلك التي أشرنا إليها في طيات هذا البحث، تدل دلالة صريحة على أنْ الأدب هو مِنْ أكثر النشاطات الإنسانية فاعليةً وتأثيرًا؛ حيث يعرض من خلاله الأديب إلى القضايا التي تُهدد حياة الإنسان بأسلوب فني قائم على التصوير، وهو إذ يصور تلك القضايا، فإنَّه يدعونا إلى أخذ العِبرة، والارتقاء بأنفسنا إلى مستوى التفكير العقلاني.

الذي نريد التأكيد عليه في ختام هذا البحث هو أنَّ الإعلام يمكن أن يكون وسيلة فعالة لمواجهة الأزمات والتحديات التي قد تواجه المجتمع، ولكن هذا الأمر لا يمكن – في نظرنا – أنْ يتحقق إلا بإعادة النظر في منظومة الإعلام، وبناء تصوُّر جديد ينظر إلى الإعلام باعتباره أداة من أدوات التأثير، ووسيلة من وسائل التغيير، وهو ما يتطلب الانفتاح على علوم ومجالات معرفية متعددة: كعلم اللسانيات، والفلسفة، وعلم النفس، وعلم الاجتماع.

المراجع

أولًا: العربية

بروطون، فيليب. **الحجاج في التواصل**. ترجمة محمد مشبال، وعبد الواحد التهامي العلمي، المركز القومي للترجمة، القاهرة، ط 1، 2013م.

البزاز، محمد الأمين. **تاريخ الأوبئة والمجاعات بالمغرب في القرنين الثامن عشر والتاسع عشر** (سلسلة رسائل وأطروحات). كلية الآداب والعلوم الإنسانية، الرباط، المغرب، 1992م.

بنحمادة، سعيد. «الطب والصيدلة بالأندلس: القواعد والتيارات». **مجلة «هيسبريس-تمودا»**، كلية الآداب والعلوم الإنسانية، الرباط، المغرب، مج. 1، ص. 193ـ 228، 2019م.

الحوتي، نور الدين. «أزمة التلقي في عصر الإعلاماتية: مقاربة تفكيكية». **مجلة رؤى استراتيجية**، مركز الإمارات للدراسات والبحوث الاستراتيجية، ع 13، ص. 68ـ91، يناير 2017م.

رشتي، جيهان. **الأسس العلمية لنظريات الإعلام**. دار الفكر العربي، القاهرة، 1978م.

ابن أبي زرع، عليّ. **الأنيس المطرب بروض القرطاس في أخبار ملوك المغرب وتاريخ مدينة فاس**. دار المنصور للطباعة، الرباط، المغرب، 1972م.

سيالديني، روبرت. **التأثير: علم نفس الإقناع**. ترجمة سامر الأيوبي، العبيكان، الرياض، السعودية، ط 1، 2010م.

شيلي، ماري. **الإنسان الأخير**. ترجمة عبد العزيز عواد العنزي، دار الخان للنشر والتوزيع، ط 1، 2019م.

عبد الرحمن، طه. **دين الحياء من الفقه الائتماري إلى الفقه الائتماني: التحديات الأخلاقية لثورة الإعلام والاتصال**. المؤسسة العربية للفكر والإبداع، بيروت، لبنان، ط 1، 2017م.

غارسيا ماركيز، غابرييل. **الحب في زمن الكوليرا**. ترجمة صالح علماني، دانه للطباعة والنشر، دمشق، ط 1، 1991م.

الغذامي، عبد الله. **الثقافة التلفزيونية: سقوط النخبة وبروز الشعبي**. المركز الثقافي العربي، الدار البيضاء، المغرب، ط 2، 2005م.

فهمي، أحمد. **هندسة الجمهور: كيف تغير وسائل الإعلام الأفكار والتصرفات**. مجلة البيان، الرياض، السعودية، ط 1، 1436هـ.

كامو، البير. **الطاعون**. ترجمة سهيل إدريس، دار الآداب، بيروت، ط 1، 1981م.

نازك، الملائكة. **ديوان شظايا ورماد**. دار العودة، بيروت، لبنان، 1997م.

المواقع الإلكترونية:

جمعية البلاغيين المغاربة. **خطاب الوباء**، يونيو 2020م، الرابط: https://youtu.be/6phndL2nVQs

خطاب الحملة الإعلامية التحسيسية ضد الوباء، مارس 2020م، الرابط: https://web.facebook.com/pg/ktab9rito

References

Books:

ʿAbd al-Raḥmān, Ṭāhā. *Dīn al-ḥayā' min al-fiqh al-i'timārī ilá al-fiqh al-i'timānī: al-Taḥaddīyāt al-akhlāqīyah li-thawrat al-i'lām wa-al-ittiṣāl* (in Arabic), al-Mu'assasat al-'Arabiyyah, Beirut, Lubnān, 2017.

Al-Bazzāz, Muḥammad al-Amin. *Tārikh al-Awbiah wa-al-Majā'āt, bi al-Maghrib, fi al-Qarnayn al-Thāmin Ashar wa al-Tāsi' Ashar* (in Arabic), Kullīyat al-Ādāb wa-al-'Ulūm al-Insānīyah, Rabat, al-Maghrib, 1992.

Al-Ghadhdhāmī, Abd Allāh. *al-Thaqāfah al-Tilifizyūnīyah: Suqūṭ al-Nukhbah wa-Burūz al-Sha'bī* (in Arabic), al-Markaz al-Thāqāfī al-Arabī, al-Dār al-Bayḍā', al- Maghrib, 2005.

Al-Ḥūtī, Nūr al-Dīn. «Azmat al-Talaqqī fī 'Aṣr al-I'lāmātiyyah, Moqārabah tafkīkiyyah», (in Arabic), *Majallat: Ruá Istrātījīyah*, Markaz al-Imārāt lil-Dirāsāt wa-al-Buḥūth al-Istirātījīyah, no 13, Jan 2017, pp. 68-91.

Bnḥmādah, Said. «al-Ṭib wa-al-Ṣaydalah bi-al-Andalus: al-Qawā'id wa-al- Tayyārāt», (in Arabic), *Majallat: Hīsprīs-Tamūdā*, Kullīyat al-Ādāb wa-al-'Ulūm al-Insānīyah, Rabat, al-Maghrib, vol. 1, 2019, pp. 193-228.

Brūṭūn, Filip. *al-Ḥijāj wa-al-Tawāṣul* (in Arabic), Tarjamat Muhammad Mshbāl wa-Abd al-wāḥid al-Tihāmi al Alami, al-Markaz al-Qawmi lil-Tarjamah, al- Qāhirah, 1992.

Fahmī, Aḥmad. *Handasat al-Jumhūr: Kayfa tughayyiru wasā'il al-i'lām al-Afkār wa-al-Taṣarrūfāt* (in Arabic), Majallat al-Bayān, al-Riyyāḍ, al-Sa'ūdiyyah, 1436.

Ghārsiyā Mārkīz, Ghābriyīl. *al-Ḥubb fī Zaman al-Kūlīrā* (in Arabic), Tarjamat Ṣāliḥ 'ilmānī, Dānah, Dimashq, 1991.

Ibn Abī Zar', 'Alī. *al-Anis al-mutrib bi-rawḍ al-qirṭās fī akhbār mulūk al- Maghrib wa-tārikh madīnat fās* (in Arabic), Dār al-Manṣūr, Rabat, al-Maghrib, 1972.

Kāmū, Albīr. *al-Ṭā'ūn* (in Arabic), Tarjamat Suhayl Idrīs, Dār al-Ādāb, Beirut, Lubnān, 1981.

Nāzik, Almalā'ikah. *Dīwān Shaẓāya-wa-ramād* (in Arabic), Dār al-'awdah, Beirut, Lubnān, 1997.

Rushtī, Jīhān. *al-Usus al-'ilmiyah linaẓariyyāt al-i'lām* (in Arabic), Dār al-Fikr al-'arabī, al- Qāhirah, 1978.

Shīlī, Mārī. *al-Insān al-akhīr* (in Arabic), Tarjamat Abd al-'Azīz 'Awwād al-'Anzī, Dār al-khān, 2019.

Siyāldīnī, Rūbirt. *al-Ta'thīr: 'ilm nafs al-Iqnā'* (in Arabic), Tarjamat Sāmir al-'Ayyūbī, al-'Abīkān, al-Riyyāḍ, al-Sa'ūdiyyah, 2010.

Websites:

Association of the Moroccan rhetoricians: epidemic epeech.,Mar, 2020. The link: https://web.facebook.com/pg/ktab9rito

Speech of the awareness-raising media compaign against the epidemic, Jun, 2020. The link: https://youtu.be/6phndL2nVQs